

مدخل إلى اللغويات التطبيقية

الفصل الثاني
وظائف اللغة

تأليف : س. هيث كورر
ترجمة الأستاذ جمال صبري

اللغة كإحدى وسائل التخاطب :

السلوكية سمة « اخبارية » ، محتفظين بالمصطلح « تخاطبي » لوصف السلوك الذي يلجأ المرء إليه بقصد الاخبار ، ومن ثم فالشيء أو غيره من الأنشطة قد يحمل ، بطريقة عارضة ، معلومات لاحد الملاحظين الخارجيين ، وقد يتضمن هذا أيضا نشاطنا الصوتي اذ مثلما نتمكن من التعرف على شيء ما عن شخص معين من مشيته ، فانه بإمكاننا كذلك استنتاج أمور معينة عن شخص ما من صوته ، فأولا لكل امرئ شيء معين يتفرد به من حيث صوته أو طريقة تحدثه ، حقا ، يمكن ، إلى حد ما ، تغيير خاصية الصوت ، أو نبرته عن عمد ، كما يمكن لشخص ما اتخاذ مميزات صوت شخص آخر ، وتلك مهارة المحاكين ، وفي مثل هذه الحالات تستخدم المميزات « الدليلية » كما سهاها ابركرومبي 1967 Abercrombie (2) للتخاطب المقصود أي للتضليل ، وبالمثل يمكننا التعرف على الوقت الذي يكون فيه شخص ما غاضبا أو مستشارا أو متعبا من « جرس » صوته ، كما نعرف ذلك من كيفية مشيته ، أو من مظاهر أخرى عديدة في سلوكه ، ومن ثم فسلوكنا جميعه اخباري ، بصفة أساسية ، ويمكن استخدامه كذلك للتخاطب .

ومع ذلك فهذا لا يعني أنه يمكن « للمستقبل » دائما أن « يقرأ الاشارات » ، اذ لكي نخبر بشيء أو يتم التخاطب معنا ، من الواضح بحاجة الى تسدر معين من المعلومات العامة أو الخاصة ، وقد يكون من بين تلك المعلومات معرفة بتقاليد معينة ، فالتمييز بين التخاطب المقصود والتخاطب غير المقصود انما يمكن في راس « المرسل » ، أما التمييز بين كون المرء مبلغا أو غير مبلغ أو مخاطبا أو غير مخاطب فيمكن في راس « المستقبل » .

أما التمييز الثاني الذي يجب علينا معالجته فهو بين التخاطب اللغوي والتخاطب غير اللغوي ، عندما

بعد المناقشة العامة حول اساليب النظر الى اللغة ، تلك المناقشة التي جرت في الفصل السابق قد يظن من المدهش أن أحدا جرؤ وحاول وضع تعريف لاي شيء جد معتد ، ورغبا عن ذلك كانت هناك محاولات لا حصر لها في هذا الصدد ، غير أن ايا من تلك المحاولات لم يتسم بالافتقار والشمول التامين ، ولكن معظمها ، بسبيل أو بأخر ، يحاول أن يدخل على التعريف بيانا ما حول « وظيفة » اللغة ، وتتخذ تلك البيانات عادة صيغة من العبارات مثل : « بواسطتها يتخاطب الإنسان » ، و « نظام للتخاطب » ، و « لاغراض التخاطب » ، هذا ، وفي الفصل السابق اعتبرت فكرة اللغة كوسيلة للتخاطب على انها إحدى وجهات النظر الاجتماعية ازاء اللغة ، حيث ان تلك الفكرة انطوت على الاهتمام بالتحدث ، والمستمع ، وكذلك على كثير من مقومات موقف الحديث ، وهنا سأبسط قديما في أمر وظيفة التخاطب اللغوي ، علينا بادئ ذي بدء ، أن نميز بين التخاطب المقصود والتخاطب غير المقصود : اذا رأينا صديقا يسير على طول الطريق فقد نتمكن ، دون ملاحظته لنا ، والى حد كبير نسبيا الخروج باستنتاجات حوله وحول حالته الذهنية أو الصحية ، وعن الجهة التي يقصدها ولماذا كل ذلك من طريقة مشيته فحسب ، وفي هذا المعنى فان مشيته « تخبرنا بشيء ما » ، الا أنه لن يخطر ببال احد أنه يمشي بتلك الكيفية « بغية » التخاطب معنا على الرغم من أن ذلك قد يحدث أحيانا ، مثل قولنا عن امرأة ما : « لقد اندفعت خارج الغرفة وأغلقت الباب بعنف » . هذا ، وسلوكنا جميعه تخاطبي ، الى حد ما ، بمعنى أن المستقبل يعلم شيئا لم يكن يعرفه من قبل ، حتى ولو لم تكن لدى « المرسل » نية معينة لاخباره بأي شيء ، وأخذا برأي مرشال 1970 Marshal (1) فانه من المجد أن نعد تلك السمة

(1) Marshall, J-C. (1970), « The biology of communication in man and animals » in J. Lyons (ed). New Horizons in Linguistics. , Penguin.

(2) Abercrombie, D. (1963), « Conversation and Spoken Prose », English Language Teaching, Vol. 18, no. 1, pp. 10-16, reprinted in D. Abercrombie, Studies in Phonetics and Linguistics OUP, 1965.

الوح الى شخص ما بيدي لاجنب انتباهه ، فانما اخاطبه بطريقة عمدية ، وأنا افعل ذلك كجزء من خطة عمل مدروسة ، كمتقدمة ، مثلا ، لأخبره بشيء ما او استعارة شيء منه ، هذا ويجب أن تكون ايمائتي واضحة نفسرها على انها « نداء » لا على انها مجرد « تحية » او « وداع » او « تخذير » ، وبمعنى آخر عليه أن يفهم الائمة حتى يكون التخاطب معه ناجحا وتعد كيفية تفسير تلويحة او ايماءة ، في أى مجتمع ، مسألة تقليد سلوكي مشترك بين « المرسل والمستقبل »

والسلوك التخاطبي مسألة تقليد اساسا ، ومع ذلك فالتلويحة لا تعد جزءا من التخاطب اللغوي ، فاذا ناديت « هيسا ، يا بيل ، احضر هنا لحظة » ، فان نواياي تكون نفس النوايا ، الا ان تخاطبي هذه المرة سيؤخذ ، بصفة عامة ، على انه تخاطب لغوي ومن ناحية اخرى ، اذا صحت بالفاظ رديئة النطق ، قد يبدو من الصعب الحكم على ما اذا كان ذلك ، حقا ، تخاطب لغوي او غير لغوي ، اذ من الصعب وضع حد فاصل بين النوعين ، ويتوقف وضع ذلك الحد تماما على العالم اللغوي : وعلى الظواهر التي يجب على نظرياته ان تفسرها . والواضح تماما هو ان الامر لا يقتصر على ما اذا كنا نستخدم او لا نستخدم أعضاء الكلام في التخاطب ، فقبل كل شيء علينا استخدام السعال او الصياح او التناؤب او الاتين ومجموعة كبيرة من « الاشارات الصوتية » كتصرفات تخاطبية مقصودة ، يعدها نفر قليل « لغوية » ، وبالطبع ، يمكننا التخاطب لغويا عبر قناة البصر ، وعن طريق الكتابة ، وهذا لا ينطوي على استخدام الاعضاء الصوتية .

والفاصل بين التخاطب اللغوي والتخاطب غير اللغوي ليس محكما ثابتا ، اذ انه يتوقف ، بصفة اساسية ، على القرارات النظرية للعالم اللغوي ازاء ما يدخل في مجال دراسة ، فيقوم علماء لغويون مختلفون بوضع الفاصل بين التخاطب اللغوي والتخاطب غير اللغوي في أماكن مختلفة ، الا ان معظم العلماء اللغويين يتفقون ان الخاصية الرئيسية للسلوك اللغوي تكمن في انه يتألف من عدد كبير متناه من

الاشارات التحكيمية الا انها تقليدية والتي قد تتحد بطرق معتدة مختلفة لابرار تباينات المعنى : من حيث أن السلوك اللغوي لفظي اساسا ، ومن ناحية اخرى ، فالتمييز بين السلوك الصوتي والسلوك غير الصوتي سواء كان ذلك السلوك تخاطبيا او اخباريا ، لهو مسألة استخدام أعضاء الصوت او عدم استخدامها ، فحقيقة ارتباط التخاطب اللغوي اساسا بالسلوك الصوتي في عقول الامراد هو ، الى حد ما ، « حادث تاريخي » ، غالبا ما يسمى « اولية الحديث » وبهذا نغنى ان السلوك التخاطبي ينشأ بصورة طبيعية اولا على هيئة صوت ، ويظهر ذلك في تطور الفرد وفي تطور المجتمعات البشرية معا .

ومن ثم علينا ان نمايز بين السلوك سواء كان صوتيا او غير صوتي ، وبين السلوك الاخباري اساسا والسلوك التخاطبي تصدا ، كذلك يمكننا ايجاد فروق عدة بين السلوك التخاطبي (سواء كان لغويا او غير لغوي) وفقا لما يجرى نقله (تبليغه) ، هذا ، وسأتناول الموضوع بتفصيل اكبر فيما بعد في سياق السلوك اللغوي على وجه التحديد ، بيد انه من المفيد في هذا المقام ان نمايز بصفة مبدئية بين المهام الموسيقية ، والمهام الادراكية ، للسلوك اللغوي (ليونز 1972 ، Lyons (3) وتكمن المهمة الموسيقية للسلوك اللغوي في استخدام هذا السلوك في التعبير عن حالتنا الذهنية وعن عواطفنا ، ولايجاد « صلة » بيننا وبين مستمعيينا ، ولتأكيد مشاعر التكامل والثقة والود تجاههم ، اسما الوظيفة الادراكية للتخاطب فتكمن في التعبير عن ادراكاتنا الحسية ، وتخيالاتنا ، وارتائنا في « واقع الامور » ، واذا ما حللنا السلوك الاشاري للحيوان ، بهذه الكيفية ، فان ذلك السلوك يتضمن ، على وجه الحصر ، المهمة الاولى ، فمن الظاهر ان الحيوانات تتفاعل مع المواقف بحيث يمكن للمراقب العلمي البشري من حيث المبدأ ، ومن حيث معرفة بالموقف الاجمالي ، ان يتنبأ بأى اشارات صوتية او غير صوتية سوف تظهر ، ويتأثر تلك الاشارات على الحيوانات من نفس النوع ، او من نوع آخر ، وبمعنى آخر ، نحن نصف سلوكا حيوانيا معيننا على انه تعبير على الخوف ، او

(3) Lyons, J. (1972). « Human Language », in R. A. Hinde, (ed) Non-Verbal Communication, The Royal Society and Cambridge University Press.

للوضعة أو الإيماءة أو نبرة الصوت أو تغيير الوجه .
 أو طريقة مشيتنا أو ملبسنا أو أكلنا ، يمكن استخدام
 كل ذلك في اخبار الناس بشيء معين ، ولكن اذا اردنا
 بلوغ النجاح فيجب على « المستقبلين » معرفة مجموعة
 القواعد المرعية التي نتبعها ، هذا ويمكن الى حد كبير
 تحييد المشية « المتعبة » من ناحية وظائف الاعضاء
 غير انه يمكن محالكتها ، فثمة طريقة « مقبولة »
 للمشي تم عن « التعب » . ويقوم قدر كبير من التمثيل
 غير الجيد على مثل هذا النوع من القواعد المرعية من
 قبيل : امداد المرء يده في شعرة وكبت التثاؤب والقمعة
 وربما كان كل سلوكنا يتسم بأحد عناصر العادات
 التقليدية ذلك لانه انما يكتب في المجتمع ولهذا السبب
 بالذات فان الهيئة التي يتخذها ذلك السلوك تصبح
 مميزة للمجموعة الاجتماعية التي يكتب فيها ولמיד من
 الامثلة انظر لابر 1972 - La Barre (5) وهذا جزء
 مماثله بالثقافة ، فنحن نتخاطب تخاطبا عمديا حين
 نستخدم سلوكنا عن عمد في حدود نطاق مسموح به
 ووفقا لمجموعة من قواعد السلوك المرعية حتى
 نستخدمها في التخاطب وهذا يصدق بكل وضوح على
 اللغة كما انه يصدق على غيرها من اساليب السلوك

هذا وغالبا ما يطلق اسم شبه لغوى على اي
 استخدام عمدي للسلوك الجدى في اغراض التخاطب
 وفي حدود القواعد المرعية ، ومن قبيل ذلك الإيماءة
 والوضعة وتعبير الوجه ودرجة السرعة ودرجة الصوت
 ونوعية الحديث وثمة ميل قوى لان يصاحب السلوك
 شبه اللغوى السلوك اللغوى كنوع من الطباق وهما
 يختلطان مثلهما في ذلك مثل الالحن التي تخطط فى
 عملية مزج الالحن ويتمثل ذلك عندما نوميء اتجساة
 شيء معين بدلا من استخدام تعبير لفظى : « فقط »
 اعطى ذلك ، ، ، (ايماءة) او كما يحدث كثيرا في
 المحلات والمكاتب : « واسيك . . . ؟ » مصحوبا برفع
 الحاجبين او بلمالة الرأس .

ويصعب التنبؤ تماما بالقدر القليل من السلوك

انصدائة ، او العدوان ، ، ، وهلم جرا ، لان ردود
 الفعل ازاء هذا السلوك من قبل الحيوانات الاخرى
 تكون هروبا ، او اقترابا ، او استعدادا للقتال . . . الخ
 ونحن نقرن سلوك الخوف بالاستجابة بالهروب ،
 ثم نمضى في القول ان الحيوان « ينبه » غيره من
 الحيوانات الى الخطر ، فاذا اخترنا تسمية تلك العملية
 « تخاطب » ، كما يحدث غالبا ، فليس من حقنا ان
 نفترض انه تخاطب « تصدى » بالمعنى الذى استخدمته
 فيما يتصل بالسلوك البشرى ، اذ ان القصد ينطوى
 بالضرورة على الاختيار ، وتستثنى مجموعة اشارات
 الحيوان فكرة الاختيار هذه ، ولكى يكون لدينا ما يبرر
 غزونا للتخاطب اللغوى الى حيوان معين ، علينا
 ايضاح ان ذلك الحيوان « ادرك » ان سلوكه تأثيرات
 معينة ، وانه استخدم تلك الاشارات لابرز التأثير ،
 ويتمثل اوضح دليل على هذا السلوك التصدى لو امكن
 جعل الحيوان يظهر اشارة الخوف او السرور بطريقة
 غير ملائمة ، اى يجعله يعطى معلومات مضللة ،
 الا انه ليس ثمة دلالة واضحة على حدوث ذلك الامر
 (مارشال 1970 ، Marshal (4) صفحة 235 -
 (236) (3) .

واذا عدنا الان الى الوظيفة الادراكية للسلوك
 اللغوى ، يتضح لنا ان مجموعة اشارات الحيوان ،
 سواء كانت مقصودة ام غير مقصودة ، ليس لها وظيفة
 ادراكية ، وبالمثل قد يكون للسلوك التخاطبى للانسان
 سواء كان ذلك السلوك لغويا او غير لغوى ، وظيفة
 موقفية ، الا ان السلوك اللغوى وحده هو الذى
 يختص بوظيفة ادراكية ، فنحن قد نتقل الخوف ، او
 مشاعر الود ، او السرور بصورة لغوية ، او بصورة
 غير لغوية ، الا انه لا يمكننا تأكيد ان شيئا معنا يتسم
 بالخطورة او السرور بغير طريق اللغة .

التخاطب والمعنى :

سبق لى القول بانه يمكننا التخاطب التصدى
 بوسائل اخرى غير الوسائل اللغوية ، فاختيارنا

- (4) Marshall, J.C. (1970). « The biology of communication in man and animals » in J. Lyons (ed). New Horizons in Linguistics. , Penguin.
 (5) La Barre, W. (1972) « The cultural basis of emotions and gestures », J. Person, no. 16 pp. 49-68 ; reprinted in J. Laver and S. Hutcheson (eds), Communication in Face-to-Face Interaction, Penguin.

اللغوى أو غير اللغوى للإنسان إذ لو كان التنبؤ أمرا ممكنا فانه من الصعب أخبار الملاحظ بأى شئ لم يعرفه مسبقا ومن ثم فهذا ليس من قبيل الاخبار ، فلو كان لكل فرد نفس نوعية (الصوت) أو كان كل فرد يرتدى ملابس بطريقتة واحدة فان السميات السلوكية هذه لن تتم عن اية معلومات ومن المحتمل كذلك الا تكون لهذه السميات الفاظ في لغتنا ، ولكانت تظل سميات عالمية ثابتة يجب قبولها كأمر مسلم به مثل كون المرء انفا فهى مسألة لا اختيار لنا حيالها ، ولكن اذا كان لنا الخيار ، فثمة احتمال لاستخدامها في التخاطب ، وينطوى الاختيار بداهة على حد معين من البدائل التى يجليها الحدس نوع معين من النظام التقليدى ينطوى على المعنى ما يتم نقله ؟ :

تميل التقارير اللغوية على نحو نموذجى الى النص على ان وظيفة اللغة هى نقل « الفكر » غير اننا اذا فسرنا كلمة « فكر » بطريقة تحريرية بحيث يتضمن انعقاد والآراء والاحكام والادراكات فان ذلك يعد تقريرا محدودا للغاية ، ويمكننا قياس ذلك بوضع عبارة « اعتقد » فى صدارة تعبيرات قليلة ونتأكد اذا كانت مفهومة أو من الامضل التأكد من ان الاضافة لا تحدث تغييرا هاما فى المعنى اننا اذا نقلنا ذلك فسنجد مجموعة كاملة من التعبيرات التى تتأثر قليلا بتلك الاضافة ومجموعة اخرى تخضع لتغيير هام فى المعنى :

لقد ارتكبت الحكومة خطأ آخر
يجب أن تزور طبيبا
ستمود ريبكا غدا
هذه بلوزة جميلة

تبدو هذه الجمل قليلة التغير نسبيا فى معناها باضافة « اعتقد » قبلها ، ولكن ماذا يكون الحال بالنسبة للجمل الاتية :

يايت ، لايمكنك اجابة هذا السؤال
يا بيل يا محنك !

هل يمكنك ان تدلنى على الطريق الى الاوديون ؟

بالطبع ، يسرنى ذلك

ستلتقى اجابتي غدا

وتأتى المغالاة فى تقدير وظيفة اللغة كاداة

لنقل التعبير عن الإنكار من حقيقة أن المهتمين باللغة من الناحية التاريخية كانوا الفلاسفة وعلماء المنطق إذ كانوا يشتغلون بالناحية الافتراضية للغة من حيث قيمتها وحقيقتها ، وكانوا يميلون الى تركيز اهتمامهم على انواع الجمل التى يمكن تحليلها بصفتها معبرة عن الافتراضات الحقيقية أو الكاذبة الا أن من العسير التأكد من صدق أو كذب التعبير عن الرغبات والبهجة والام والرضا أو عن المسائل والوامر الا بالتقدير الذى نفترض به شيئا حقيقيا أو كاذبا . ونحن لايمكننا القول بأن جملة « امر الملح » حقيقية أو كاذبة فى حد ذاتها وكل ما يمكننا قوله أن الإدراكات أو الافتراضات الخاصة بالموقف الذى تنطق فيه تلك الجملة قد يكون كاذبا حقا أى ربما لا يكون هناك ملح وبالمثل فسؤال من قبيل « كم عدد أرجل الاصلة العاصرة ؟ » لا يتسم بالحقيقة أو الكذب وانما الكاذب فى الامر هو الافتراض الضمنى من ان الاصلة العاصرة ليس لها اية أرجل على الاطلاق .

و فى حين تستخدم اللغة للتعبير عن افكارنا ، نملك ليست وظيفتها الوحيدة إذ قد يكون من الصحيح أن معظم الجمل تحتوى على عنصر أو عناصر معينة تتفرض أو تؤكد عقائد أو ادراكات معينة عن موقفنا الحالى أو موقف العالم بصفة عامة الا ان ذلك لا يمكن ان يماثل بأى حال قولنا ان وظيفة اللغة هى التعبير عن افكارنا .

اذا فاول شئ علينا مواجهته هو اننا نستطيع القول بماهية وظيفة نبذة من اللغة اذا اخذناها بمعزل عن سياق الكلام والموقف الذى استخدمت فيه ، فقد تنطق نفس مجموعة الكلمات فى مناسبات مختلفة بنوايا وتأثيرات مختلفة ، وببساطة لا يكفى تسجيل الكلمات التى تنطق ، بل علينا ان نتساءل عن سبب النطق بها ، ويمكننا تنفيذ ذلك بنجاح فحسب كما شاهدنا اذا كان لدينا قدر كبير من المعلومات عن المتحدث والمستمع والموقف ، ذلك انه عندما فكر نقلا عن احد المسؤولين فى جريدة قوله انه يجب « معاملة » النهر المحلى « كبالوعة مفتوحة » ، لاحظ الصحفى الذى نقل الحديث انه كان يفترض ان يكون ذلك بمثابة « تحذير » وليس « كدعوة » ، وما زلت لا أستطيع تقدير ما اذا كانت اللامعة التى تقول « عبور المشاة » تعنى « تعليمات » للمشاة أم « تحذيرا » لسائقى السيارات فورا أى

تقرير - قد يبدو محايدا او بريئا ظاهريا - للحقيقة قد تكمن نية اخرى وهذا احد مشاكل التحدث عن الوظائف التخاطبية للغة ، فنحن لا نستطيع تصنيف المنطوقات بدقة وفقا لصيغتها النحوية اى وفقا لصيغة الامر ولاستفهام الخبر . . . وهلم جرا ، ثم نقول ان لكل صيغة وظيفة واحدة محسب على العكس من ذلك علينا القول انه قد يكون لاي منطوق عدة وظائف في آن واحد وانه ليس ثمة علاقة عامة بين صيغة منطوق ووظيفته بالرغم من وجود علاقة احصائية (احتمالية) مثلا بين الجملة الاستهامية ووظيفة توجيهه سؤال ما .

تمت في القسم السابق بالتمييز بين الوظيفة الموقفية والوظيفة الادراكية للحديث فيما يتعلق بالتمييز بين السلوك اللغوي والسلوك غير اللغوي ونتمتع بالوظيفة الادراكية بوضوح بما اسببته هنا بعنصر المنطوق الذي يعبر عن عقائدنا ، او ادراكاتنا او تصوراتنا لموقف ما ، او لموقف العالم بصفة عامة ويمكن الحكم على هذا الجزء من المنطوق (اذا كان له مثل هذه المكونة ، ويشير الى وقت ومكان معينين) ، بأنه حقيقى او كاذب حقا ، ولهذا السبب فهو يسمى احيانا بالعنصر الانتزاعى او الضمنى فى المنطوق (انظر سيرل 1969 Searle) (6) وبالطبع قد يكون فى نيتنا التزليل اى ان نقدم شيئا عكس الطريقة التى نرى بها الامور حقا او نعتقد انها كذلك على انه راينا ، او ادراكنا - الا ان هذا لا يعنى ان ذلك الجزء من المنطوق غير ادراكى ، فالوظيفة الموقفية عبارة عن مركب من الوظائف المعقدة المتصلة احداها بالآخرى فتعبيرات السرور والامم والخوف والرغبة وهلمجرا ليست تعبيرات عن كيفية رؤيتنا للامور او عما نعتقده فى وضعية الامور ، انها هى ردود فعلنا الشخصية ازاء وضعية الامور ، سواء كان ذلك طوعا ام قسرا ، فمنطوق « ريبكا ستاتى غدا » قد يكون خيرا محايدا مشرا للعاطفة لما نعتقده صوابا اما اذا قلنا « انه لن الخير ان تاتى ريبكا غدا » او « آمل ان تاتى ريبكا غدا » فاننا نضيف تعبيرا لموقفنا العاطفى لوضعية الامور كما نراها ، وبالمثل قد تنوى التزليل بالطبع . او اذا قلنا « ريبكا قد تاتى غدا » او « ريبكا لن تستطيع الحضور غدا » فاننا نضيف تقديرنا لاحتمال وضعية

الامور ، وقد يحتوى هذا المنطوق على مضمون عاطفى (ويتوقف ذلك على علاقتنا بريبكا) ولكنه ، اساسا تعبير عن درجة الثقة المتوفرة لدينا شخصا فى صدق ادراكنا لوضعية الامور ، ومرة ثانية قد تكون بنائية الى التزليل . وغالبا ما يقال للاحكام الخاصة باحتيخال او ترجح او امكانية او تأكيد العنصر الفرضى للتعبير ، العنصر النموذجى للمنطوق ، وقد نقول « ريبكا ، فلتحضرى الى المنزل غدا ! » ، من الواضح اننا هنا نصبر عن رغبة فى وضعية معينة للامور ، ويقدر معنا تعبير تلك المنطوقات المختلفة عن عاطفة او ثقة او رغبة فى وضعية معينة للامور ، يقدر معنا جميعها عنصرا يخبر المستمع بشئ معين عن المتحدث ، نجعلها تنطوى على عنصر فرضى فيها ، والان ، يمكننا ان نتساءل : هل يمكن وجود منطوقات ذات وظيفة موقفية محسب ، اى منطوقات ينقصها العنصر الفرضى او الادراكى ؟ وما العنصر الفرضى فى « مرحبا ! » او « الى اللقاء ! » او « كيف حالك ؟ » . يصعب القول بان تلك المنطوقات تعبر عن ادراك لوضعية الامور ، بالرغم من ان نطقها قد يفترض وجود مثل هذا الادراك واذا نظرنا الى مثل تلك المنطوقات ، نجد انه يمكن التنبؤ بحدوثها تماما ، وان بنيتها صيغية ، ولهذا السبب فهى تشبه ، الى حد كبير ، فى طبيعتها النداءات التى توجه الى الحيوانات ، ولذلك اطلق عليها بعض الناس مسمى سلوك « شبه لغوى » ، فمن الواضح ان وظيفتها موقفية ، بالرغم من انها قد لا تحدث اكثر من ايجاد شعور بالتضامن او علاقات الود بين المتحدث والمستمع ، الا ان الغالبية العظمى من المنطوقات ليست من هذا النوع الصيغى ، وتحتوى فعلا على عنصر افتراضى ، وربما كان ذلك هو السبب فى ان العرف جرى على اعتبار « نقل الافكار » كوظيفة اولى او وحيدة للغة .

اداء الحديث :

تنطوى معظم المنطوقات على عنصر ادراكى ، غير ان هذا لا يعنى ان وظيفة اللغة هى ، ببساطة ، التعبير عن ذلك العنصر ، فكل ما للغة هو عنصر موقفى يرتبط بنوايا المتحدث ، وعن طريقه ينقل شيئا معنا عن حالته الذهنية ، ونشاطه ، وعن سبب تحدثه

(6) Searle, J.R. (1969) « Speech Acts, » Cambridge University Press .

المرور ، أو دق مسمار وهم جرا ، وإذا اتبنا مجرى المنطق هذا ، لوجدنا أن ثمة أنواعا مختلفة من أفعال الكلام ، كما أن هناك « أفعال الكلام » أو « أفعال الإداء » ، كما يسميها أوستن Austin وهذا يعنى الثبات من الأفعال التي تدخل في إطار « وأنا هنا . . . أن . . . » أي أفعال الإداء .

غير أن بيانا عن وظائف اللغة ، بيان يفكر كل الأفعال المسماة يعد صعب المآخذ تماما بحيث لا يجدى نفعا كبيرا ، وهنا نحتاج الى تصنيف هذه الأفعال الى مجموعات تكون لها مميزات وظيفية ، وهكذا ، يجب علينا الاتفاق على أن أفعال الأمر واصدار التعليمات والمطالبة واصدار الأوامر والنواهي لها صفة مشتركة وهي جعل المستمع اليها يأتي بفعل شيء ما وينتهى عن اتيان فعل ما ، اذا فلها تماثل وظيفي ، وقد نود تضمين تلك المجموعة الطلب والتساؤل والاستفهام ، وكلها تنطوي على جعل المستمع اليها يقول شيئا ، واذا اردنا تسمية هذه المجموعة من وظائف الحديث فقد نتبع أوستن Austin في تسميتها بالأفعال التوجيهية ، اذ انها ترمى الى تنظيم سلوك من يستمع اليها ، أو التحكم في بيتنا بصفة نهائية ، عن طريق اتاس آخرين ويقسم أوستن Austin كافة أفعال الحديث الى خمس فئات مختلفة ، وينبئنا الاتعوقنا المسميات التي يطلقها على تلك الفئات ، اذ انه يعتذر عن التعبيرات الجديدة التي صاغها ، وتتركب المجموعة الأولى من الأفعال التي تؤلف الاحكام على احوال الأمور والتسميات ، والتقدير ، والتخمينات ، وهي الأفعال التي تعطى اضافة الى شيء ما ، حقيقة أو قيمة ، وتتركب المجموعة الثانية من الأفعال على شيء من السلطة أو النفوذ أو الحق من قبيل التعيين أو التصويت أو الأمر أو النصح أو التحذير ، أما المجموعة الثالثة من الأفعال فتتوزم المتحدث باتيان فعل معين مثل الوعد أو التعهد أو اعلان النوايا أو الامتصاح عن عقيدة أو ايمان . أما المجموعة الرابعة فتتناول السلوك الاجتماعي بصفة أساسية مثل الاعتذار وتقديم التهنئة أو المصافاة أو التحدى . وتتضمن المجموعة الخامسة اتخاذ موقف ازاء شيء معين مثل

اصلا ، وبالطبع ، قد لا يعبر ذلك العنصر الموقفي صراحة ، كما شاهدنا ، فكل منطوق لا يبدأ بلفظة « أنا » ، ولكن يمكن استهلال أي منطوق بكلمات من قبيل « أريد » أو « أتمنى » ، أو « الأمر » ، أو (استنكر) أو غيرها من منات الأفعال التي تعبر ، حرفيا ، عن النوايا ، والاماني ، والمعتقدات ، والتوكيدات ، دون تغيير المعنى في سياق معين ، بأى حال من الاحوال ، ويمكننا القول بأنه ثمة تغيير محتمل لكل منطوق في الظروف التي تبدأ بمثل : أنا . . . أن . . . وهكذا ، يمكننا اقتراح تفسير لعبارة « ادنى » و « محايدة » مثل اثنين واثنين أربعة ، فنقول « احسب أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة » ، أو بالنسبة الى : كم الساعة « أرجو أن تخبرني كم الساعة ؟ » وبالنسبة الى : احضر هنا لحظة ، « أمرك بالمجيء الى هنا » ، وبالنسبة الى : يجب غسل هذه السيارة بعد ظهر اليوم بقولنا اطلب أن يقوم شخص ما بغسل هذه السيارة بعد ظهر اليوم ، وبالنسبة الى : ها هو بيل بقولنا « اتنيا بان هذا هو بيل » أو « دعنا نذهب الى السينما » بقولنا « اقترح أن نذهب الى السينما » . ثمة أفعال حديث معينة تتطلب ، في ظروف معينة ، وصف طبيعة الفعل في المنطوق بوضوح ، حتى يكون فعلا من هذا النوع ، ومن الناحية النطقية تكون لمثل هذه الأفعال خلفية قانونية أو دينية ، وعادة ما يكون المنطوق جزءا من الطقوس والشعائر الدينية ، فمثلا ، عند ذكر أسماء المشتركين في حفل ديني على ظهر السفينة ، يشعر هؤلاء المشتركون بأن عملية ذكر الاسماء لم تستخدم الكلمات « انى اسمى هذه السفينة . . . » وبالمثل فاننا نشعر بأن الطفل لم ينصر بطريقة صحيحة في حالة قول القس « دعنا نسميه ارشيبالد ، هلا سميناه كذلك ؟ » ويمكننا القول مع أوستن 1955 Austin (7) أن نطق صيغة لفوية محددة جزء اساسي من اداء الفعل ، هذا ، ويمكن تعميم هذه الفكرة بالنسبة للحديث برمته ، فنطق الحديث هو « أسلوب لاداء » فعل معين ، والكلام ليس فعلا في حد ذاته ، الا اذا اعتبرنا تحريك المرء لذراعه فعلا ، فقد يكون تحريك الذراع جزءا من لعبة ضربية جولف ، أو ادارة حركة

(7) Austin, J.L. (1955), « How to Do Things with Words ».

المنافسة ، أو الرد أو التنازل ، أو الادعاء ، أو الافتراض .

والآن ، قد يبدو هذا النوع من التصنيف مشابها لنوع تصنيف الجمل الى خبرية وأمرية واستفهامية وتعجبية ، تلك الجمل التي نالها في كتب النحو ، وعلى هذا فهي مشابهة الى حد ما ، اذا ما استثنينا اتسامها بالتفصيل ، وقيامها لا على تحليل صيغ لغوية فحسب بل على الفرض من استخدام هذه الصيغ أو « اعتبارها » في مواقف الحديث الفعلية ، فمثلا : هل علينا ان نصنف الجملتين التاليتين معا : « هذا الطلاء ما زال بليلا » و « ستلتقى اجابتي غدا » لا لشيء سوى انها خبريتا الصيغة . فسي كثير من المواقف تفسر الجملة الاولى على انها تحذيرية ، وتفسر الثانية على انها وعد ، وفي الواقع يمكن اعتبار كلتا الاثنتين كتأكيد للحقيقة ، ذلك في سياق معين ، اذا ما نطق بهما بتنظيم ملائم ، فمثلا يقال : « اؤكد ان الطلاء مازال مبللا » و « اؤكد لك انك ستلتقى اجابتي غدا » . ومع ذلك ، فالامر يتطلب شيئا من الابداع لتصور موقف يجب علينا ازاءه القول « انا اعد بان الطلاء مازال مبللا » و « انا اذكرك انك ستلتقى اجابتي غدا » الا ان احدا لا يتصور العكس « انا اذكرك من ان الطلاء ما زال مبللا » و « اعدك بانك ستلتقى اجابتي غدا » ولو ان حقيقة امكان تصورنا هذا تعزز ما سبق لي قوله بالفعل من عدم وجود علاقة متناظرة بين مجموعة من افعال الحديث والصيغة النحوية لمنطوق ما ، وانه يبدو ان أي منطوق تقريبا يمكن ان تكون له اية وظيفة في سياق ما وموقف ما تقريبا ، وهكذا ، ليست صيغة المنطوق هي وحدها التي تحدد كيفية تهمننا له فحسب بل خصائص موقف الحديث برمته ، وهذا ما يجعل تصنيف افعال الحديث بطريقة نظامية وصحيحة علميا امرا جد صعب ، كذلك فانه السبب وراء لجوئنا الى حد كبير الى المعايير الخاصة بهذا الموضوع والتي تقوم على الفطرة السليمة ، وتتمثل احدى المشاكل الكبرى للفويات والتي لم تحل حتى الآن في اكتشاف العلاقات بين السمات الصيفية للمنطوق وبين الموقف ، وهي

مشاكل تؤدي الى تفسير معين للمنطوق كتحذير او وعد او تأكيد او كمنال لمجموعة معينة اخرى من افعال الحديث ، ونود ان نعطي تفسيراً لتلك الملحوظة التي نسمعها بصفة عامة : « اننى ادرك ما تقوله ، لكنى لا اعرف ما تعنيه » والتي احيانا تختصر ببساطة لتصبح « انا لا افهمك » .

وظائف الحديث :

تكن احدى طرق معالجة هذه المشكلة في البدء بتحليل احد مواقف الحديث ، وبإحدى ذى ببدء ، يجب ان يكون هناك مشتركان هما انا وانت ، اى المتكلم ، والمخاطب ، او « المرسل » و « المستقبل » ولا بد من التصميم على وجود هذين المشتركين حتى في حالة الاتصال عن طريق الكتابة ، حيث من الطبيعي الا يتواجد المشتركان جسديا في نفس الزمان والمكان ، كذلك نكل كاتب يكتب الى او من اجل فرد معين على الرغم من انه قد يتصور قراءه بطريقة غير محددة ، وقد سبقت لي الاشارة الى الحالة التي نتحدث فيها الى انفسنا ، ونوهت الى ان مثل هذا النشاط يتعلق ، بشكل ما ، بعمليات تفكيرنا ، او انه ذو وظيفة تنظيمية ذاتية ، ولكن ما يعنينا هنا هو التخاطب ، اى الوظيفة الاجتماعية للغة ، فالتحدث الى نفسك ليس نشاطا اجتماعيا بالنسبة للناضجين ، على الرغم من ان التمييز قد لا يكون واضحا بالنسبة للاطفال الصغار .

بياجيت 1926 Piaget (8)

ولكى تتم عملية التخاطب ، يجب ان يقوم الاتصال بين المشتركين ، فالتقرب الجسدي بين شخصين لا يقيم موقفا كلاميا ، وعلينا ان نجعل الناس منتبهين ، وفى الواقع ان رفض المرء الانتباه في مواقف معينة ، عن عمد ، وما نسميه « مقاطعة شخص ما » يعتبر فعلا ذا دلالة في حد ذاته ، هذا ، ويمكننا بطريقة مجدية التمييز بين ايجاد الاتصال و « المحافظة على الاتصال » اذ يتم اولهما عن طريق الاعمال التي تجذب انتباه المستمع ، وتوضح اننا نود الاشتراك معه نفسه ، وليس مع شخص آخر ، في المحادثة ، وتسمى هذه الاعمال « بالنداءات » من نوع او آخر ، مثال ذلك : هيا ، بيل ! ارجو المعذرة ، يا سيدى ! ويمكننا وصف

(8) Piaget, J. (1926), « Language and Thought of The Child », English edn, Routledge and Kegan Paul.

لا نتخاطب معه عن طريق اللغة ، ويمكن حدوث ذلك إذا كنا غير مشتركين في تقاليد الكلام ، أى فى حالة عدم وجود نظام لغوى مشترك بيننا ، إذ تمثل السمات الشكلية للغة المشتركة بين المشتركين عاملا هاما فى موقف الحديث .

وعندما نتخاطب مع شخص ما فإننا ننقل شيئا ما ، رسالة ، وقد يحد الموقف من سبل نقلنا تلك الرسالة بطرق متعددة ، فإذا كان الموقف ضاحكا صاخبا ، قد يتطلب الأمر منا الصياح ، وإذا كان مهتما ، قد يكون من الواجب علينا الاختصار ، وإذا كان الموقف رسميا فعلىنا انتقاء مجموعة من الكلمات التى تختلف عن الكلمات التى قد نختارها فى موقف غير رسمى ، ولكن — حتى بعد أخذنا كل تلك الأمور فى اعتبارنا — يمكن نقل نفس الرسالة بمجموعة من السبل المختلفة ، هذا ، وتعد صيغة الرسالة نفسها أحد عوامل موقف الحديث ، إذ يمكن استخدامها بحيث تنقل شيئا ما .

وقد تكون كل هذه العوامل السبعة : المتحدث ، المستمع ، والاتصال بينهما ، والمجموعة اللغوية المستخدمة ، والخلفية ، والموضوع ، وصيغة الرسالة — قد تكون كلها بؤرة فعل الحديث ، أى العنصر الذى يوجه النشاط إليه ، ويمكن ربط وظيفة مختلفة للحديث مع كل من تلك العوامل ، فإذا كان التوجيه نحو المتحدث ، فأمامنا ما سبق تسميته بالوظيفة الشخصية للغة ، فمن خلال هذه الوظيفة يكشف المتحدث عن موقفه ازاء ما يتحدث عنه ، وفى آخر الأمر يفصح لمستعته عن شيء من شخصيته ، ولا يقتصر الأمر على أنه يعبر عن احساسه « من خلال اللغة » ، بل عن احساسه « بصدد » ما يتحدث عنه ، ونحن كمستمعين يكون الأمر اخباريا إذ نستشعر فقط ان المتحدث غاضب وحزين ، أو سعيد ، ويصبح الأمر تخاطبيا حين ترتبط حالته الانفعالية بما يتحدث عنه ، أى بسبب غضبه أو حزنه أو سعادته .

والحديث الموجه الى المستمع هو ذلك الحديث الذى تكون وظيفته توجيهية ، وهى وظيفة التحكم فى سلوك أحد المشاركين فى الحديث ، لا بقصد دفعه الى اتيان فعل معين ، أو التصرف أو الحديث فحسب ، بل ليسلك سلوكا وفق خطة ما أو أسلوب معين محبب للمتحديث بصفة عامة ، وقد يتم ذلك عن طريق الأمر

ذلك بأنه اتصال مادي ، ولكن لا ينبغى الانتصار على ايجاد الاتصال المادي ، بل يجب فتح قناة للاتصال والحفاظ عليه ، وغالبا ما نجري « اختيارا للقناة » بتعبيرات من قبيل : اتسمنى ؟ ، أو الحث على الحديث بقولنا « تكلم جهارا » ، إلا ان الاتصال ليس ماديا فحسب ، بل انه نفسانى أيضا ، فيجب علينا الحفاظ على « الألفة » مع المستمع اليانا ، وجعله مهتما وودودا أو متعاوننا ومستمرنا فى المحادثة ونحن نفعل ذلك عن طريق ما نسميه عادة « محادثة قصيرة (لنوا) » أو « المحادثة حول شؤون تانها » مثل الطقوس والاستفسار عن الصحة ، وبث المديح والتشجيع ، ونحن نختبر كذلك اتصالنا النفسانى بالمستمع اليانا : « هل تفهمنى ؟ » و « هل تتابعنى بانتباه ؟ » . ونحن نساعد المستمع اليانا على فعل ذلك بتنظيم حديثنا بطريقة منطقية : « أولا وقبل كل شيء » و « وما أعنيه هو . . . » و « أما نقطتى التالية فهى . . . » و « كما سبق وأشرت . . . » هذا نوع من « ابراز » حديثنا .

هذا ، ولا تنشأ المحادثة أو الاتصال بين الأفراد فى فراغ بل فى زمان ومكان معينين ، وفى « خلفية » مادية وزمنية ، فقد يكون الأفراد جلوسا أو وقوفنا ، ماشين أو راكبين سيارة ، وقد يكونون من بين زمرة من الناس ، أو بفردهم معا ، بين اصديقاء أو غرباء فى حجرة ، أو كاتدرائية أو شارع ، وقد تؤدى كل هذه العوامل دورا فيما يجرى فى المحادثة ، إلا انها لا تمثل محورها . فقد يحد مكاننا ومع من نتحدث ووقت حديثنا مما نتحدث فيه وكيفية حديثنا جوله ، إلا انها ، لذلك السبب ، ليست موضوع محادثتنا ، وبالطبع ، ثمة أماكن وأوقات للتحدث عن أمور معينة ، وكذلك أماكن وأوقات لعدم التحدث عن تلك الأمور ، فمن الواضح أن موضوع الحديث يعد عنصرا هاما فى موقف الحديث ومهما كانت وظيفة المنطوق فهى دائما وتقريبا حول شيء ما ، وستنطوى على ما أسميته بالعنصر الخبرى وقد تكون ثمة علاقة أو لا علاقة بين خلفية واقعة الحديث والعنصر الخبرى فيه ، غير انه ثمة صلة بين موضوع الحديث ومضمونه الخبرى ، حتى لو كان الحديث حول أمور خيالية بحثة مثل الجنيات أو المفاريت أو احاديث القرن .

وقد نوجد اتصالا مع شخص آخر ، إلا اننا

مثل : «عادة ما يفعل الناس هذا أو ذاك» أو «عادة أو الطلب أو التحذير أو عن طريق عبارة نصح عامة مالا يفعل الناس هذا أو ذاك» أو «يجب عليك ألا تفعل هذا أو ذاك» ، عن طريق استصراخ العقوبات القانونية أو الأخلاقية المألوفة في المجتمع .

أما عندما تكون البؤرة مركزة على الاتصال بين المشاركين في الحديث ، فإننا نجد الحديث موظفا لإقامة العلاقات والحفاظ عليها ، والسمو بمشاعر السود والزمالة ، أو التكافل الاجتماعي ، وتتسم هذه الأمور بأنها ذات صيغة عظيمة ، أو من قبيل الطقوس ، الاستذنان ، والتحيات ، وإبداء الملاحظات حول الطقس والاستفسار عن صحة أفراد الأسرة ، كما تؤدي هذه الوظائف التي أحيانا ما يقال لها وظائف «اجتماعية» ، بالحركات ، والاتصال المادي ، وتعبيرات الوجه ، وكذلك بالتلويح ، أو الشد على الأيدي ، أو الابتسامات ومهمتها تظيف « الهدف » وجمله « رقيقا » .

أما الوظيفة التوجيهية للحديث نحو الموضوع والتي يغلب تسميتها بالوظيفة «الاسنادية» ، فهي تلك التي تلوح في عقول الناس إلى حد كبير ، وهي تحقق بطريقة نمطية عن طريق العنصر الافتراضي في المنطوق ، وكما رأينا فإن هذه الوظيفة هي التي أثارت الفكرة التقليدية وفحواها أن اللغة هي المختصة بنقل الفكر ، وتنسيق العبارات حول كيفية تصور المتحدث لمجريات الأمور في العالم

والآن نصل إلى الوظيفتين المرتبطتين بمجموعة نظم الحديث ورسائله ، وهما - من بعض النواحي - من أصعب الأمور التي يجب الالتزام بها ، فحين يتخاطب الناس أحدهما إلى الآخر ، يجب ألا يقتنوا بإقامة الاتصال بينهما فحسب عن طريق «اختبار الوسيلة» ومن قبيل ذلك قولنا : هل يمكنك الاستماع إلى ؟ - غير أن الاتصال مستمر بين المتحدث والمخاطب عن طريق اختبار فهمهما المتبادل بـ « هل أنت متتبع الحديث ؟ » « هل تدرك ما أقول ؟ » وهذا ما نستطيع تسميته بوظيفة التوجيه نحو الاتصال ، أما الطريقة المثلى لضمان كون الاتصال ناجحا فتكمن في مراعاة

المشاركين فيه لقواعد النظام بصورة فعلية ، فحين يشترك شخصان في لعبة مثل « الشطرنج » فليس من الضروري عادة التأكد - قبل بدئهم للعب - من أنهما يتفقان على قواعد اللعبة ، لأن تلك القواعد معروفة وثابتة ولا يعترضها لبس أو ابهام ، أما حين يلعب الأشخاص « لعبة اللغة » فعليهم التأكد - بصفة مستمرة - من أنهم يلعبونها وفق نفس مجموعة القواعد وهذه هي وظيفة التعريف ، والتعريف عبارة عن بيان لتاعدة في « لعبة اللغة » ، يدعو المتحدث المستمع إلى قبولها حتى يمكن للمحادثة أن تستمر هذا ، وقد وصف العلم بأنه أسلوب للتحدث عن العالم ، وإذا ما نظرنا إليه بهذه الكيفية لوجدنا أن كتاب العلوم عبارة من كتاب لتواعد لغة التحدث عن العالم ، وقد سميت وظيفة اللغة هذه بانها وظيفة ما وراء اللغة أو لغة عن اللغة ، وأنها الوظيفة الرئيسية في عمليتي التعلم والتعليم

أما عندما يكون التركيز على الرسالة ، فعلىنا الاهتمام بالوظيفة التصورية للغة ، وهنا يجب علينا أن نتأكد تماما من أننا لا نخلط بين شيئين : استخدام اللغة للتعبير عن أفكار أصلية أو غير معتادة ، أو آراء أو مشاعر أو خيالات جامحة أو أي شيء في جمعبك ، وبين الوظيفة التصورية للغة للتعبير عما قد يكون دنيويا أو الأمور الواقعية أو الترهات البحتة ، وبالطبع يحدث الأمران معا وقد يكونا ملتزمين بطريقة لا فكاك منها ، ولكني أعني بالوظيفة التصورية للغة ذلك الشق الثاني فقد تستخدم اللغة للغة نفسها ، وللهجة التي تبثها المتحدث بها والمستمع إليها ، فأرجيز الأطفال وطنظنتهم قد تكون بغير دلالة ، وحتى لو كانت ذات دلالة فهي تدور حول شيء غير مشوق أو هام البتة ، وتتحقق وظيفتها من خلال أصواتها وإيقاعاتها وترنيماتها ، وما ذلك إلا نوع من استخدام اللغة ، وظيفته تصورية فليس المقصود من « ريت الكعكة » ، « ريت الكعكة » إعطاء وصفة لعامل الخبز .

ويتبع التحليل الذي أوردناه في الصفحات السابقة متابعة لصيغة ذلك التحليل الذي أورده هيمس 1968 Hymes (9) ، وليس من الصعب التحقق من مدى تلك

(9) Hymes, D. (1968). « The ethnography of speaking », in J. Fishman (ed), Readings in the Sociology of Language, Mouton.

المتابعة ، على الأقل في نقطة معينة الا وهى : تصنيف
 أعمال الحديث ، ومن الواضح انه ينبغي ان تكون ثمة
 علاقة بين أعمال و ممارسة الحقوق والسلطات ، وبين
 الوظيفة التوجيهية للغة ، وبالمثل ، تستمر الوظيفة
 الاسنادية للغة ، الى حد كبير ، بواسطة تلك الاعمال
 التى تتخذ وجهة نظر النسبية لكيفية حل امور واقعية
 او افتراضية ، وفي الحالة البدائية الراهنة لمعرفتنا في
 هذا المجال ، فاننا نحتاج الى كلا الاعتبارين بالرغم من
 التداخل الذى قد يكون قائما بينهما ، غير ان ما يؤكد
 الاعتباران هو ان اى منطوق مفرد قد تكون له وظائف
 جديدة او يمثل أكثر من فعل واحد ، فالمنطوق قد يؤكد
 كيفية حل امر من الامور وقد يتطلب تصرفا ما من قبل
 المستمع ، وقد يكون له وظيفة اسنادية ووظيفة توجيهية
 ممثلا اذا قيل « ائتمنى بهذا الكتاب » فان ذلك « يؤكد »
 على وجود ومكان شىء ما ، ويضع نسبه لذلك الشىء
 و « يوجه » المستمع الى اتيان تصرف ما حياله .

تعليم اللغة ووظيفتها :

اننا لا نعلم ، بوجه التأكيد ، قوى وجود كل
 وظائف الحديث ، التى اشرنا اليها ، في كل الثقافات .
 الا انه من المؤكد ان الاهمية النسبية لهذه الوظائف
 المختلفة قد تختلف من ثقافة الى اخرى ، وقد يتنوع
 توزيع تلك الوظائف ، ففي بعض الثقافات تبدو فيها
 وظيفة الاتصال اللغوى ، اى استخدام اللغة لاقامة
 الاتصال الاجتماعى وحسن النية والحفاظ عليها ،
 كأمر أكثر أهمية ، ممثلا يعتقد نفر من الناس ان
 التكرار النسبى للشكر يختلف في أمريكا عنه في بريطانيا
 ويؤدى هذا النوع من الاختلاف الى الحكم على ان
 الامراد في طبقات وبلاد وفتات اجتماعية معينة ...
 الخ أكثر « ناديا » ، ففي بريطانيا ، مثلا ، لا توجد
 لدينا اجابة شماتية للتعبير عن الشكر ، كما هو
 الحال في أمريكا اذ يقولون « مرحبا بكم » ، او مى
 فرنسا اذ يقولون « أتوسل اليك » اوفى المتبا اذ يقولون
 « أرجوك » . الا ان هذا لا يعنى عدم وجود اجابة لفظية
 موافقة لمثل هذا الموقف — بل ان صيغتها قليلة التنبؤ
 بها . وفي بعض الثقافات يعتبر توجيه الاسئلة امرا
 غير مقبول في مهام معينة ، بينما يكسر الاستخدام
 الشعرى للغة في ثقافات اخرى .

ولكى يشارك المرء في الحياة الاجتماعية للمجتمع
 يجب ان يكون في مقدوره ان يخاطب ويتلقى المخاطبة ،

ولهذا السبب يتعلم المتعلم لغة ما ، واذا ما تركنا
 جانباً حالة المتعلم الذى يدرس اللغة ببساطة كوسيلة
 للتقدم العلمى ثم يمضى فى اهمالها ، فإى فرد يتعلم لغة
 يفعل ذلك الشىء ، او يطلب اليه فعل ذلك ، بحيث
 تصبح وظيفية او ناعمة بشكل ما وهذا لا يعنى قصر
 نطاق الوظائف التى اشرت اليها على تلك التى تكون
 طوع ابناء اللغة الاصليين . هذا ويمكن الحد من وظائف
 اللغة الى حد كبير ، فمتعلم اللغة قد يعرف — بكل
 دقة — الغرض الذى يريده من وراء اللغة ، او قد
 لا تكون لديه فكرة واضحة البتة ، كما شاهدنا في الفصل
 الاول : نحن بحاجة الى تحديد اهداف اللغة فى اية
 عملية من عمليات تعليم اللغات ، ويمكن التعبير عن
 هذه الاهداف فى نطاق ما نود ان يتمكن المتعلم من
 عمله فى نهاية المقرر الدراسى ، ويمكن صياغة تلك
 الاهداف فى نطاق النوايا التى يجب ان يكون قادرا
 على نقلها ، وماهية فئات أعمال الحديث التى يجب
 عليه تأديتها ، او ماهية وظائف الحديث التى يجب ان
 يجيدها ، كما يمكننا تناول المسألة بطريقة مختلفة
 بتحديد ماهية الادوار التى يجب عليه ان يؤديها فى
 المجتمع ، فالدور الاجتماعى عبارة عن مجموعة من
 الحقوق والالتزامات تشغل نطاقا معينا من السلوك ،
 محدد بوضوح تقريبا ، ويتوقف على طبيعة الدور
 موضوع البحث ، وفى معظم المجتمعات ، لا يندمج
 المتعلم فى ذلك الدور كعضو تام مع كافة الادوار
 المتعددة التى قد ينجزها عضو فى ذلك المجتمع او
 ينتسب اليها ، ومن المحتمل ان ينسب اليه دور
 « الاجنبى » ولهذا الدور توقعات معينة ترتبط به ، من
 ذلك تسامح كبير ازاء الانحراف عن معايير السلوك
 المختلفة ، اللغوى منها وغير اللغوى ، وكثيرا ما نسمع عن
 ايجاد المعانير ازاء تصرف غريب يأتبه شخص اجنبى
 بكلمات من قبيل « لا يمكنك ان تتوقع منه معرفة ذلك
 فهو اجنبى » ، ومع ذلك فمن المحتمل جدا ان ماتوقعه
 من الاجانب ، اى الدور السلوكى « نلاجبى » قد
 يعرف بطريقة مختلفة للغة من ثقافة الى اخرى .
 ممثلا ، يمتد ، على نطاق واسع ، ان الفرنسيين
 يعدون اقل تسامحا من البريطانيين ازاء الانحراف اللغوى
 فى المتحدث الاجنبى ومن سوء الطالع اننا ما زلنا لا
 نعرف سوى القليل عن دور الاجنبى فى الثقافات المختلفة
 فيما يتعلق بالحقوق والتوقعات ، والدلالة التى لدينا انها
 تتسم بالتقصية والذاتية ، بينما يجد المتعلم دور الاجنبى

بطريقة مرضية خارجها ، وذلك يوحى بأن المتعلمين اكتسبوا وظائف الحديث الملائمة لحجرة الدراسة ، أو أنهم حققوا دور « متعلم اللغة » لا غير .

هذا وسنجد صعوبة في صياغة منهج « وظيفي » بفهم لغوي رسي الى أن نعرف قدرا كبيرا عن العلاقة بين الصور اللغوية ووظائفها في الحديث ، فنحن قد نعلم الطلب تكوين الجمل الاستفهامية ، ونفشل في تعليمه كيفية صياغة الاسئلة بطريقة ملائمة والى أن نعرف الكثير عن هذه العلاقة ، لا يمكننا تدريس الوظائف اللغوية بطريقة نظامية ، لذلك إذا نظرنا - من وجهة النظر الوظيفية - نجد أن ثمة مهمة على المتعلم يعجز المعلم - نسبيا - عن مساعدته بشأنها ، وهو موقف سنقابله بصفة متكررة في كتابنا هذا ، وإذا كنا محظوظين سيتعلم متعلمو اللغات في آخر المطاف قدرا كبيرا مما لا نعلمهم اياه أو لا نستطيع تعليمهم اياه لان وصف ذلك لا يتوفر لدينا بقدر كاف . هذا هو الحال بالنسبة لتعلم وظائف اللغة - من حيث استخدام اللغة لغرض ما ، ويكمن الحل الوحيد الذي علينا تقديمه ، في الوقت الحاضر ، في عرض كمية كبيرة ومتنوعة من اللغة على هيئة نصوص قرينية على الطالب ، وعليه أن يسمع ويرى « اللغة عمليا » وهذا لا يعنى الاستماع الى اللغة فحسب ، انما يعنى تقديم موقف الحديث برمته فلا يمكن للطالب ، مثلا ، أن يحكم من الصوت وحده على ما اذا كانت « ذلك الطلاء رطب » عبارة عن جملة اخبارية أو تحذيرية ، وعلى « ستاتي » كشيء من قبيل التنبؤ أو نوع من الامر ، فيجب على الاقل توافر البيانات التي يكشف فيها قواعد وتقاليد السلوك اللفظي بنفسه ، ونحن لا نهتم فقط بتعليم الطالب انتاج كلمات مترابطة نحويا بطريقة مقبولة ، بل بتعليمه استخدام اللغة لغرض ما ، ليتخاطب بها ويتلقى مخاطبة بها ، اي تعليمه أداء ادوار بعينها .

قد التصق به ، قد تكون هناك ادوار أخرى - مهنية : مثل العالم أو مندوب المبيعات ، أو مستقلة كما هو الحال بالنسبة لمثل السائح أو الرياضي - التي قد يرغب في اتخاذها ، ومع كل من هذه الادوار ، ثمة مجموعة من وظائف الحديث التي يجب عليه اجادتها .

وفي أيامنا هذه ، هناك اهتمام كبير بمسمى اللغة العلمية أو التقنية ، والحاجة الى تدريسها ، وساتناول ذلك في الفصول القادمة ، ولكن قد يكون من المجدى تبني الرأي القائل أن ما ندرسه للمتعلم ليس لغة فرنسية أو المانية « علمية » ، غير أننا حتى اذا ما حددنا أهداف التدريس في نطاق أنماط المحادثة التي يعمد المتعلم نفسه للمشاركة فيها ، فإن فكرة وظائف اللغة تظل ملائمة . هذا وقد تركز كثير من البحث فيما يسمى « اللغة العلمية » على خصائص اللغة التي يستخدمها العلماء ، وعلى التركيبات النحوية المستخدمة وتكرارها النسبي ، وعلى طبيعة المفردات والتكرار النسبي للكلمات المختلفة (هادلستون 1971 Huddleston (10) وقد أثبت ذلك البحث أن الاختلافات بين مثل هذه المحادثة والمحادثة السلاعية لم تكن بالجسامة التي كان يمكن توقعها ، ولعلنا نجد أن معالجة تنطوي على تحليل اللغة العلمية في نطاق وظائفها تكون معالجة واعدة ، فقد نجد مثلا ، أنها قد تكون كما سبق واقترحنا ، شيئا وراء اللغويات بشكل غالب ، أو انه كان هناك رجحان لأعمال الحديث التنبؤية أو الاسنادية وانعدام فعلى للأعمال التوجيهية ، أو أن وظيفتها الشخصية أو الشاعرية ضيقة النطاق ، على أن مناهج عمليات تدريس اللغة تنيل الى التعبير في نطاق قائمة من الصور اللغوية المنروضة حفظها ، وربما لم يلتفت واضعو تلك المناهج كثيرا الى الغرض من استخدام تلك الصور اللغوية . وكثيرا ما يسمع المرء شكاوى متكررة من المعلمين مضمونها أن المتعلمين يبدون كما لو كانوا يتقنون اللغة في حجرة الدراسة ، بينما يفشلون في استخدامها

(10) Huddleston, R.D., (1971). « The sentence in written English : a syntactic study based on an analysis of scientific texts », Cambridge Studies in Linguistics, no. 3, Cambridge University Press.